

في القرن التاسع عشر

وتدخل قنصل فرنسة في ذلك

بقلم الشيخ سليم الدحداح

٢

تتمة

ولنعد الآن الى القنصل فانه لدى وصوله الى طرابلس حلّ ضيفاً على قيس قنصل فرنسة هناك ، وبقي عنده يومين . وقد زاره فيها اخوان من أسرة كسفليس ، وهي يونانية الاصل من جزيرة كورفو ، وكانا متولين توصيات بقية الدول المسيحية في طرابلس ، بنوع ان الجنيئة القائمة امام بيتهما كانت حافلة باعمدة اعلام هذه الدول اكثر منها بالاشجار المثمرة . وقد اسهب في الكلام عنهما وعن عائلتهما ووصف ملبسهما الاعتيادية والرسمية ، ووصف خاصة جمال قرينة احدهما التي قال عنها «انها بالحقيقة ملكة الجمال وانه لم يجد مثيلاً لها في انحاء لبنان وسورية الأمدام ككفاكو ، قرينة قيس قنصل فرنسة في حيفا» . وقد قال عن هذه الاخيرة «انها بالتأكيد ملكة حقيقية مزدانة بالحرير والكشيد والجوامر ، وعلى مجاها هيئة اجتمع فيها الحياء المسيحي مع جزع الحرم بنوع بديع» .

ثم ترك طرابلس ، وصعد تصعبه حاشيته الى جبال الجبة ، فوصل كوسي قروبين ، حيث لقيه الاساقفة الثلاثة ، يحيط بهم مشايخ الجهات الشمالية . وقد خصّ منهم بالذكر شيخ بشري الشاب (ولم يبين اسمه) ، والشيخ شبل من مشايخ بشري وقد نسب اليه الحداع واختلاق الدسانس ، والشيخ بطرس

كرم^١ من اهدن ، وسمه ولداه مخايل ويوسف . وخال وصوله ابتدر الاساقفة والمشايع بخطاب طويل يتن لهم فيه سوء عاقبة تأخير الانتخاب البطريركي ، وانه جناً بفض الخلاف قد اقتنع الاساقفة الذين كانوا يطلبون اجراءه في كسروان بالحضور الى دير ميفوق الكائن في بلاد جيل ، لانه في نقطة متوسطة بين كسروان والحبية ؛ وانه يتأمل منهم ، اي الاساقفة الثلاثة ، ان يتبعوا مثل اخوانهم ويقنعوا من كلامه فيوافقهم الى ميفوق حيث يصير اجتماعهم وانتخاب البطريرك . وبمد مبادلة الاحاديث والبراهين بينه وبين الاساقفة وكبار المشايخ ، ولما ظهر له ان اكثر ما يمنع الاساقفة عن مبارحة قنوبين هو خوفهم من نهب هذا الكرسي من قبل مشايخ بشري ، تمهد لهم بانه يتقى هو مع حاشيته محافظين على الكرسي وموجوداته . حينئذ اقتنع الاساقفة والشيخ بطرس كرم الذي ساعده كثيراً ، وقام النائب الروحي فسلمه مفاتيح الكرسي والخزنة البطريركية ، ثم سافر في القد مع رفيقيه النائب الزمني ومطران طرابلس الى دير ميفوق . فبقي القنصل واستبقى المشايخ عنده .

فظلوا في ضيافته في الكرسي يومين ، ثم ودعوه بمد ان وعدم برد الزيارة . وبمد ذلك توجه الى بشري فاستقبل هناك بكل حفاوة ، وزار الارض وسمه اكثر من ثلاثين شيخاً ووجيهاً . واذ هم موجودون هناك وصل سياح من الانكليز ، وعلى رأسهم احد كبار اللوردة المشهور باسم المركيز دي ليكو ، فاتلم القنصل في ضيافته ومن هناك توجه الى اهدن ، فعمل ضيفاً كريماً على الشيخ بطرس كرم . وهنا يهب القنصل في وصف دار الشيخ وحن ضيافته وكرم اخلاقه ، ويذكر ان له ابنين : مخايل ، ويوسف . فيطري هذا الاخير مادحاً شجاعته وحن خلاله ، ويذكر ان اياه كان يقدم عليه ويروجو ان يكون خلفه . واما مخايل الاكبر فيقول عنه « انه كان طناعاً يتظر وفاة والده بفروغ صبر ليخلفه ، وحموداً دني الاخلاق يحمق على اخيه يوسف بسبب تفوق هذا الاخير عليه ؛ وانه كان يرغب في احراز السلطة باي صورة كانت ،

(١) قد غلط المؤلف بكتابة اسمه ، فانه ذكره في هذا النصل ٦ او ٧ مرات ، وفي كل مرة يذكره باسم « الشيخ بطرس كرامه » . وهو سهو وانح ، فاملحت اسمه .

وهو مستمد لبيع شرفه ودينه للوصول الى تلك السلطة^(١). ويذكر القنصل ان من عوائد هذا الشيخ الوجيه استقبال كبار السّاح في داره^(٢) وقد قضى القنصل ليته في دار الشيخ بطرس . وعند الصباح وصاه رسول يحمل اليه كتاباً من المجمع الاسقفي في ميفوق ، يخبره فيه الاساقفة انهم لدى اجتماعهم جميعاً في ميفوق باشروا اعمال الانتخاب . ثم رأوا الانسب ابرازوه في فتويين حساً لكل نزاع ، وحتى لا يبقى لاهلي جبة بشري وجه للاعتراض . فقررروا القيام من ميفوق والمجيء الى قنويين ، وانهم حال خروج حامل التحرير من دير ميفوق قد بارحوه هم ايضاً قاصدين قنويين .

فقرأ القنصل هذا الكتاب على الشيخ بطرس ونهض حالاً ، فنادى بين ممة الى قنويين . فوصل الكرسي في حال وصول جميع الاساقفة ، وفي مقدمتهم المطران انطون الجازن ، وهو مرتد جبة حمر . بصفته شيخ الاساقفة . وكان يميّتهم حضرة الاب بلانشه اليسوعي .

فالتقاهم القنصل ورفاقه بكل احتفاء وهنأوهم على اتفاقهم ، وبعد ان تناولوا طعام المشاء انفصل عنهم ، داعياً لهم بان يتوقفوا ايضاً في الاجتماعات التي سيمقدونها منذ صباح اليوم التالي الى الوصول الى انتخاب بطريرك يسير على تقاليد البطاركة الراحلين . وفي اليوم التالي ، وهو الثامن عشر من شهر

(١) ويقول عن مخايل هذا انه كان على اتفاق تام مع الحدّاع الشيخ شبل من مشايخ بشري . ويضيف انه كان يوجد هناك اي في جوار بشري ، قس اسمه نمبة الله اخرج من حضن الرهبانية البلدية لسوء تصرفاته وفساد اخلاقه ، وكان صديقاً للشيخ شبل وللشيخ مخايل اللذين كانا ، بالاتفاق ممة ، يدسان الدبائس اجاباً لسي القنصل وشماً لانمام الانتخاب . ولم يصرح القنصل المؤتلف لا باسم عائلة الشيخ شبل ، ولا باسم عائلة الراهب المطرود المكّار . اما الشيخ مخايل بطرس كرم فهو والد البكوات الثلاثة بطرس واسد وسليم اللذين مثلوا دوراً في ما بعد في عهد متصرفية لبنان المتنازعة .

(٢) لقد اخطأ حضرة الاب اسطغان فرجه البشلافي ، في كتابه عن لبنان وبوسف كرم ، اذ ذكر ان ولي عهد الملك لويس فيليب زار الشيخ بطرس ، ظاناً ان لقب « جواثيل » يتخص بولي العهد ، فخلط بين الاخوين . والحال ان الذي اتى الى الارز وحضر في امدين قران احدي بنات الشيخ بطرس سنة ١٨٣٦ ، هو البرنس دي جواثيل ثالث ابناء الملك ، ولي عهده الملقب بالدوق دورليان .

آب ، احتفل رئيس المجمع ، المطران انطون الحازن ، باقامة القداس الالهي . وبعد القداس تناول السادة طمام الصباح مفردين ثم اجتمعوا في الكنيسة وقفوا الابواب وباشروا اجراء الانتخاب . وساد السكون في الكرسي البطريركي . واما القنصل فقد اجتمع بالاب پلانسه في غرفته واخذوا يتبادلان الاحاديث عن حوادث اوربة ، وعن الآداب الفرنسية ، والمجادلات الفلسفية والاجتماعية التي كانت قائمة في ذلك المص في فرنة . وظلاً كذلك حتى الساعة الثانية بعد الظهر ، فسما حينئذ بتمة اصوات الترائيل والصلوات صاعدة من الكنيسة . وفتحت ابوابها ، وقرعت الاجراس ، فاسرع القنصل والاب اليسوعي الى جهة الكنيسة ، فراوا جميع الاساقفة خارجين باحتفال ، وعلى رأسهم السيد يوسف الحازن . فدخلوا قاعة الاستقبال حيث تبهم القنصل والاب پلانسه . ولماً فرغوا من الترائيل ، وكانوا قد اخذوا مراكرهم من عن بين ويسار السيد يوسف الحازن ، تقدم رئيس المجمع المطران انطون الحازن ، وقال بصوت عالٍ ، باللغة الإيطالية ، ما تعريبه : « يا حضرة القنصل هوذا بطريرككم (مسيراً الى السيد يوسف الحازن) فانكم اتم الذي عملتموه ا » فقدم القنصل والاب پلانسه من السيد البطريرك يوسف الحازن واخذوا يركبه ، وقدما له التهانى ، ثم هنأ آباء المجمع على اتفاقهم وحسن اختيارهم . وبعد برهة انسحب القنصل والاب اليسوعي الى خارج الكرسي وابتمدا عنه مسافة بضع دقائق ، وجلسا على ربة هناك غير منظورة من الكرسي . واخذوا يتحدثان تاركين الوقت اللازم للسيد البطريرك الجديد وللإساقفة لاجل الراحة ، واتخاذ كافة التدابير اللازمة استمداً لحضور المهنيين من اهل الجوار . وكان القنصل والاب پلانسه بغاية السرور من النتيجة التي وصلا اليها ، والاب المشار اليه ينسب كل اسباب النجاح لتدخل القنصل . فاجابه هذا مازحاً : « أرأيت يا حضرة الاب كيف ان التلقة واستعمال العقل بإمكانها خدمة الدين والمساعدة على فوزه . »

وطالت خلوتها في ذلك المكان الذي كانا يتتمان منه باجل المناظر . وهما كذلك ، واذا باصوات صياح وقاتل وطلات نارية واغاني حماسية . وكانت

الساعة الرابعة فمضوا للحال متوجهين ناحية الكرسي ، فنظروا من بعد مئات من الأشخاص مسلحين بعضهم بالصي وببعضهم بالسكاكين واكثرهم بالبواريك ماجين حتى دخلوا الكرسي وتفرقوا فيه . فوصل القنصل والاب پلائشه ودخلا في اثرهم فرأياهم داخلين الكنيسة ، وقاعة الاستقبال ، وغرف البطريرك والاساقفة . فصاح بهم القنصل وظلّ يحدق صفوفهم حتى دخل غرفة السيد البطريرك . وكان المتمرّدون قد تزعموا الطائفة عن رأسه ، ومسكوه بشعره . فلما رأى البطريرك القنصل ، سلّمه حالاً خاتم البطريركية . وكان يجابوب هولاء الماشين بكل لطف قائلاً : « اهكذا تتناولون على رئيس طائفتكم ؟ »

فهجم القنصل ووقف بين هولاء الافراد والسيد البطريرك . فكان حاجزاً مانعاً الوصول اليه ، وصار يضربهم بيديه ويصيح بهم ويتهددهم وينذرهم بسوء عاقبة عملهم ، وكان الاب پلائشه من جهته يجري مثل ذلك . وكان كل من التراجمة والقوّاصّة والطاهي والحدم والمكارين ، حاشية القنصل ، يدافعون عن الاساقفة ويضربون الهاجين ويصيجون بهم . وكان القوّاصّة مصوّبين الاسلحة النارية على هولاء المجانين ومتنظرين الاشارة من القنصل لاطلاقها واخيراً تمكّنوا من بعد ساعة واكثر من اخراج تلك الجماهير من الكرسي ، ودرغماً من كثرة عدد الهاجين وانواع التمدي التي قاموا بها لم يحصل تلف انفس ، فأخذ الثمامة والحدم بالاعتناء بالسادة . أمّا القنصل فانه درغماً عن تبعه قد امتطى جواده والتفت الى رؤساء تلك الجماهير قائلاً لهم : « ها انني متوجه الى طرابلس ، ومنها لبيروت ، وساعدوكم ومي نجدة قوية للاقتصاص منكم ، فاجملكم عبرة لمن اعتبر ، وحينئذ تطلون نتيجة التمدي على البطريرك واهانة ممثل دولة فرنسة . » وظلّ سائراً حتى قرية بريسات . ففي هذا الوقت كانت قد هدئت الحواطر وفهم اولئك الهاجون رداة عملهم ، وخافوا النتيجة فلحقوا بالقنصل واحاطوا به واخذوا يترجونه ويترامون على اقدامه ، ويطلبون منه ان يعود الى الكرسي متمهدين له بالعودة معه حتى يلشوا ايدي البطريرك والاساقفة ويطلبوا منهم السلاح والمغفرة . اخيراً بعد رجاء طويل ، وبمد صراخ الاستنانة والبكاء والتعجب من هذا القوم ، رضي ان يعود معهم . فساد حينئذ

الفرح بينهم واخذوا يجردون باسم التنصل . ولما وصلوا الى الكرسي اخذوا يصيحون باسم البطريرك يوسف الحازن والاساقفة . ولما اطل البطريرك عليهم ، جثوا راكعين في ساحة الكرسي ، وطلبوا منه المفخرة مظهرين الندم على ما بدا منهم . فباركهم وقال لهم انه قد غفر لهم اكراماً للتنصل . وبعد ان لثوا ايدي البطريرك والسادة والتنصل والاب پلانسه ، انصرفوا وذلك بعد غروب الشمس . وقد حسن لدى التنصل حينئذ ان يُرسل تحريراً الى الشيخ بطرس كرم في اهدن يخبره بنتيجة الانتخاب ، ويطلب اليه الحضور مع رجاله صباحاً احتياطاً لكل مفاجأة .

وكان قد استولى الشعب على التنصل وُجِّح صوته تماماً ، وكانت ثيابه مزقّة ، وكذلك كانت حالة جميع السادة والاب پلانسه وتراجمه للتنصل وحاشيته ، فاخذوا قسطهم من الراحة ثم ناموا غير مصدقين بمخلصهم بتلك الصورة . وعند الصباح ، بينما كان التنصل وجميع سكان الدير حاضرين ذبيحة القداس التي قام بها غبطة السيد البطريرك ، وعند رفع الكاس ، سُمت طلقات نارية واهازيج مثل التي كانت جرت في اليوم السابق . فتابع البطريرك اكمال الذبيحة بدون سرعة ولا تأثر . ولما اعطى البركة الاخيرة وخلع الملابس الحربية ، طلع على الطح مع لثيف سكان الدير فنظروا من جهة نحو ١٥٠ رجلاً مسلحين ، ومهمم الشيخ شبل والشيخ مخايل بطرس كرم ، وكانوا مظهرين على ذواتهم انهم حاضرون لتهنئة غبطته وللحفاظة على الكرسي . وقبل ان يصلوا الى الكرسي سُبِع عن بُعد طلقات نارية واهازيج حماسية ، وبعد قليل وصل قوم آخرون ، وهم رجال اهدن وعلى رأسهم الشيخ بطرس كرم وابنه الشيخ يوسف ، ودخل التومان ممأ الى الكرسي . فتقدّم الشيخ بطرس وابنه والاهدنيون ، وهنأوا غبطته والاساقفة ، وسألوا التنصل ماذا يأمر . فاخلى التنصل بالشيخ بطرس ، واوقفه على ما جرى في اليوم السابق . وبعد ان تداول البطريرك الجديد وكافة الاساقفة ، اتفقوا على مفادرة قنبرين مع التنصل والاب پلانسه . فطلب التنصل من الشيخ بطرس ورجاله الحفاظة عليهم في الطريق . وبعد ساعتين نهض

البيطريوك والتنصل والاساقفة جميعهم والاب پلانسه ، وقد احاط بهم الشيخ بطرس وابنه يوسف وزجال اهدن بالسلاح الكامل ، وغادروا قنوين مجئاً الى كسروان . ولما دخلوا اراضي بلاد جبيل ، عاد اكثر الاهدنين الى بلادهم ، وظلّ الموكب البطريركي متاباً سيره حتى زوق مكابيل . فكان في انتظارهم الامير حيدر اسمعيل ابي اللسع ، قائمقام النصارى ، ومعه اربعمائة فارس وعدد كبير من المشايخ الخوازنة اقارب البطريرك وسائر مشايخ كسروان ورجالهم . واخذوا باطلاق الميارات النارية واجراء الالطاب وغناء الهازيج المفرحة ، ولما وصلوا دير البشارة تجلّ البطريرك ، وكافته افراد الموكب ، وبعد ان استقرّ بهم المقام تقدم القائمقام والمشايخ وهنأوا البطريرك وقدموا عبارات الشكر للفتصل وللاب پلانسه .

وهكذا تمّ انتخاب البطريرك يوسف الخازن بعد وفاة سالفه بمدة ٨٦ يوماً^{١)} . ولم يتدخل المجمع الروماني المقدس ، لان اعطاء المجمع الانتخابي لم يراجعوه بالامر . اما الفتصل فعاد في اليوم التالي الى بيروت ، وبمد مضي مدة ، ورده من السيد البطريرك تحرير كله عبارات شكر وتنا . ، وما قاله فيه :

« انك بالرغم من اشغالك المدينة تركت مركزك وحضرت الى قنوين وحافظت على الديان فوقيته من النهب واستمرت ٢٢ يوماً متحلاً جميع انواع التعب ، فكنتنا من عقد مجمع الانتخاب الذي رفنا الى هذا المقام البطريركي عن غير استحقات منا ومثقتنا بحمايتك وعدت بنا الى كسروان حيث نحن عائشون بكل امان مع اخواننا الاساقفة . »

كذلك ورد الفتصل المشار اليه تحرير من الموزخ والخطيب الشهير كيزو ، وزير الخارجية وقتئذ في فرسة ، يقول فيه :

« بمناسبة قرب نهاية مأموويتك في سورية يلذ لي ان اجدد لك عبارات محظوظية حكومة جلالة الملك لما اظهرته من الثبات والحذق بدفاعاتك عن

(١) لم نعلم ابن وجدت مجلة « المذرة » التي تصدر في جونية ، في عدد شهر شباط من هذه السنة ، ص ١١١ ان البطريرك يوسف الخازن ، موضوع كلامنا هنا ، قد انتخب بعد ٢٦ يوماً من وفاة سالفه !!!

المصالح المهمة التي أقيمت لهدتك . ان حُسن مداخلتك في انتخاب البطريرك هي من اهم الخدمات التي قدمتها لمنفعة سكان لبنان المسيحيين .
ولما انتهت مأموريته في بيروت ، سافر الى فرنسا ، وبعثه في باريس قابل وزير الخارجية المشار اليه ، فأله هذا : « هل البطريرك رجل المي ؟ »
(*Est-il un homme d'esprit?*) فاجابه القنصل : « لا اعلم هل في الشرق كله رجل يصح فيه القول انه المي (*Un homme d'esprit*) بالماضي الذي نفهمه في اوربة . في الشرق يوجد رجال اذكيا . جداً ، وحائزون على صفات متنوعة وعديدة بدرجة فائقة . لكن لا يوجد عند هؤلاء . الرجال نظرات عامة ولا سمة الحكم ولا الخاصة الفلصية التي تفقه الروابط بين الامور ، وبالاختصار ليس لديهم تلك الصفات التي تشكل ما نسميه في اوربة الرجل المي . » فاجابه وزير الخارجية المرما اليه : « لكن انتخابه في كل حال عمل استاذ خير ، يحق لك الاقتضار به . »

وكان هذا الجواب الصادر من رجلٍ مثل كيزو اكبر شهادة على مقدرة القنصل المراتب .

وقد روى الحوري منصور الحدوتوني في « المقاطعة الكروانية » حادثة هذا الانتخاب ، الا انه وهم في بعض تفاصيلها . اما القنصل فهو شاهد عيان ، وقد كتب عما رآه بذاته . وهنا ختم القم الثاني من تأليفه المنزه به .^(١)
وهذا الانتخاب هو الاخير الذي جرى في قنبرين او الديمان . واما ما تبعه من الانتخابات في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٨٥٤ ، و ٢٨ نيسان ١٨٩٠ ، و ٦ كانون الثاني ١٨٩٩ ، و ٨ كانون الثاني ١٩٣٢ ، فقد تمت جميعها في كروسي بكركي في كروان .

(١) ان عهد بطريركية السيد يوسف الحازن لم يتجاوز التسع سنوات والشهرين . وبعد وفاته اجتمعت آراء السادة الأساقفة على انتخاب مزاحم القديم ونائبه الروحي السيد يواس مسد ، نكث بطريركاً ٣٥ سنة وخمسة اشهر مثل فيها دوراً سياسياً ودينياً مشهوراً ، رتوني في ١٨ نيسان سنة ١٨٩٠ .